

❁ السيرة النبوية بين القدوة والحجة

د. أ. د. السعيد رحمانى

أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر-1

مقدمة :

السيرة النبوية العطرة هي أهم السير وأعظمها على وجه الإطلاق؛ ذلك أنه لم تحظ شخصية من الشخصيات في تاريخ البشرية، ولا عظيم من العظماء، بمثل ما حظي به محمد ﷺ، فقد اهتم الناس بسيرته، وبتفاصيلها ودقائقها منذ الولاة إلى وفاته. ولم يقتصر الاهتمام على محبيه وأتباعه والمعجبين به؛ بل تجاوزه إلى أعدائه والمنكرين لدعوته .

فقد كتب هؤلاء جميعا حول سيرة النبي محمد، وتتبعوا أخباره، وتفاصيل حياته ودعوته، ولم يتخلف عصر من أعصر التاريخ عن الاهتمام بالسيرة النبوية وظل الناس يكتبون في كل قرن إلى يوم الناس هذا؛ بل يمكن القول إن العصور المتأخرة كانت أكثر احتفاء واهتماما بحياة الرسول محمد بن عبد الله، وبمختلف لغات العالم، وفي كل القارات. وذلك لا يدل على قيمة ومكانة محمد ﷺ، وأهمية سيرته ودعوته، كما يدل على حضورها في واقع الناس وحياتهم، ولذلك نحتاج دائما إلى النظر في هذه السيرة من جديد والاستفادة منها، وفي هذا السياق نقدم بحثنا لنسلط الضوء على بعض الجوانب المهمة في السيرة وهي جانب القدوة والحجة . وقد تم تقسيم البحث إلى المحاور الآتية :



- أهمية السيرة .
- كثرة الكتابات في السيرة .
- المناهج التي كتب بها السيرة واتجاهاتها .
- المواقف من السيرة .
- أهمية السيرة بالنسبة للمسلمين (القدوة) .
- أهمية السيرة بالنسبة لغير المسلمين (الحجة) .
- الاستدلال بالسيرة على صدق الرسالة: (توظيف معطيات السيرة في رد الشبهات حول الرسول والوحي) .

أهمية السيرة :

لا شك أن سيرة الرسول ﷺ تختلف عن سير غيره من العظماء والزعماء والقادة لا من حيث المضمون ولا من حيث الوقائع ولا من حيث التفاصيل .

لو نظرنا إلى سيرة محمد ﷺ لوجدنا الكثير مما يميزها من غيرها من السير، فلو نظرنا إليها من حيث الكتابة والتأليف لوجدنا أنها أكثر سير الناس تأليفاً وكتابة : "فعدد ما كتب فيها يفوق ما كتب في غيرها، ولو نظرنا إلى الكاتبين فيها لوجدنا أن الذين كتبوا في سير محمد من كل الفئات " .

فكتب فيها المسلمون وكتب فيها المؤيدون وكتب فيها المحايدون وكتب فيها المتحاملون. ولو نظر إليها من حيث موقف الناس منه لوجدنا



أنهم يجمعون على تميز شخصية مُحمَّد وسيرته والجميع معجب بها ويشخص صاحبها، فسيرة مُحمَّد إذن سيرة متميزة في كل جوانبها، والبحث فيها يزداد يوما بعد والكتابة فيها متواصلة والقول فيها سائر إلى الأمام. ويمكن القول بكل اطمئنان وثقة أنه لا يوجد في التاريخ شخص اهتم بسيرته الكاتبون في مختلف اللغات؛ كما حدث مع مُحمَّد .

ولو أردنا أن نلم بجوانبها لما وصلنا إلى تحقيق المطلوب لذلك نقف عند بعض النقاط التي نقدر أنها مهمة في بحثنا هذا، وهي على النحو الآتي :

1- طبيعة الكتابات في السيرة النبوية :

إن الذين كتبوا في سيرة مُحمَّد بن عبد الله، لا يمكن حصرهم ولا تعدادهم في صفحات ولا حصرهم في مقالات، وكل واحد ممن كتب حول سيرته أتى بما يستطيع وحاول أن يلهم ببعض الجوانب، ولو نظرنا إلى هذه المكتوبات، نستطيع تحديد بعض الملامح العامة التي تشترك فيها، وهي :

الكثرة والتنوع :

فقد شهد التاريخ وقرر كتاب السيرة أن ما كتب في سيرة نبي الإسلام يتميز بالكثرة التي تأبى الحصر والعد؛ يقول سليمان الندوي في كتابه الرسالة المحمدية: يقول سليمان الندوي: والذي ألفه الناس في سيرة النبي من عهد الرسالة إلى يومنا هذا في مختلف الأوطان الإسلامية والأجنبية في معظم لغات العالم يعد بالألوف، واعتبر ذلك بما صنف في اللغة الأوردية الحديثة وحدها في موضوع السيرة النبوية، مع أن الأوردية لم تصر لغة تأليف إلا منذ



قرنين على الأكثر، وفي تقديري أن ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ ألفا إن لم يزد عليه .

ثم يقول عن تأليف غير المسلمين وما يتميز به من الكثرة والتنوع: ودع عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيهم فإنهم يحبونه حبا عظيما ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطا وذخرا لهم يوم القيامة. وتعالى ننظر إلى ما ألف في سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته، ولا يوقنون برسالته، فإننا نجد في الهند نفسها على اختلاف مللها: من الهنادك والشيخ والبرهمو سماج كثيرا من علمائهم قد ألفوا في سيرته، أما الأوروبيون الذين لا يدينون بالإسلام ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم في سيرة النبي حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون، عناية منهم بالتاريخ وإرواء لظمئهم العلمي، ويعد ما ألفوه بالملئات⁽¹⁾ .

أما المسلمون فقد ألفوا في السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ولا يزلون ماضين في التأليف فيها⁽²⁾ .

الطابع العلمي الأكاديمي والتحليل :

هناك كتب كثيرة في السيرة النبوية تتميز بالطابع الأكاديمي، وتقوم على التحليل وتتبع الأحداث التاريخية للسيرة النبوية، وفق تسلسلها الزمني وتحليلها والربط بينها وبين الأحكام التي تنطوي عليها وقد ازدهرت هذه الكتابات في العصر وكثر التأليف فيها ولا يتسع المقام للوقوف عندها بإسهاب .



الطابع السردى الروائى الجامع :

وهناك أيضا كتابات أخرى كثيرة لا يحصرها العد، تهتم بكل تفاصيل السيرة النبوية، ودقائقها، وتتبع كل تفاصيل حياة النبي محمد ﷺ، وقد بدأ الاهتمام بالسيرة والكتابة فيها وفق هذا المنهج منذ وقت مبكر، وتطور البحث فيها وأزدهر مع مرور الوقت إلى أن أصبحت المكتبة الإسلامية، غنية بالمصنفات والمطولات ن وأشتهر كل عصر بميزة خاصة في التأليف في سيرة المصطفى ﷺ. وكشف التاريخ عن أكثر السير اهتماما بالتأليف منذ بداية الكتابة على اليوم، وهي سيرة محمد ﷺ .

ماذا تمثل السيرة النبوية للمسلمين؟

إن حياة محمد ﷺ وسيرته مرتبطة بالرسالة الإسلامية وبالوحي الإلهي، ذلك لأن الوحي الإلهي "القرآن" الكريم ظل ينزل على محمد ﷺ طيلة مدة ثلاث وعشرين سنة، ولما اكتمل نزول القرآن انتقل الرسول إلى جوار ربه، وهي تدرس حياة وسيرة رجل هو أعظم رجل خلقه الله على وجه الأرض، وقد اعترف له بذلك المنصفون من الكتاب الغربيين، فقد وضعه على رأس العظماء المائة في العالم الكاتب الأميركي (مايكي هايا) .

وإن السيرة النبوية تمثل أحد أهم العلوم وأفضلها بالنسبة للمسلم "فهى تجربة غنية بأحداثها، زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها" كما يقول عماد الدين خليل⁽³⁾.

ومن الفوائد التي نستفيد منها من دراسة السيرة ما يلي :



إن دراسة سيرة مُحمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه في أيامنا هذه ضرورة وأي ضرورة يملئها الواقع البئيس المحزن الذي يعيشه الإنسان المسلم وغيره من متاهات لا نهاية لها^(*).

كما تفرضها الأوامر الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران].

ومن أهم النقاط التي تظهر لنا فيها أهمية السيرة النبوية نذكر ما يلي :

1- السيرة النبوية هي تطبيق لتعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تطبق في عالم الواقع، فتعاليم الإسلام لم تنزل لتحصر بين جدران المساجد، وداخل أروقة بيوت العلم الشرعي وكتباته، بل تنزلت من الحكيم العليم، لتكون سلوكا إنسانيا، ومنهجاً حياتياً، يعيشها الفرد المسلم في نفسه وشخصه، يدركها في واقعه ومجتمعها .

هذه التعاليم ينشأ في بحبوحتها الفرد، ويشب عليها، فتصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه، يتعرف على هديها في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل موقف وشأن، وإذا كان المبدأ النظري يحتاج إلى مثل قائم بجسده في الواقع، فإن أحسن من مثل هذا المبدأ هو مُحمَّد، فقد كان رسول الله يطبق تعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تطبق في عالم الأحياء والبشر، وذلك في جميع أحواله وظروفه، نوماً ويقظة، سلماً وحرباً، جداً ومداعبة، غضباً ورضاً فرداً وجماعة⁽⁴⁾.

ولم يكن ﷺ يحيد عن منح الله قيد أنملة، ولو حدث منه ذلك جاءه الوحي الإلهي بالتوجيه والإرشاد، كما في حادثة عبد الله بن أم مكتوم عندما

السيرة النبوية بين القدوة والحجة

أقبل على النبي وانشغل عنه بالاهتمام بصناديد قريش يدعواهم إلى الإسلام ويرجوهم للإقبال عليه، فنزل قوله تعالى: عبس وتولى أن جاءه الأعمى".

وغيرها من التوجيهات الإلهية والتصويبات الربانية التي جاءت تكملة تلك الجوانب في شخصية الرسول، وهو ما جعل السيدة عائشة لا تجد ما تصف به مُحمّدا حين سئلت عن خلقه إلا قولها الخالد: "ألم تقرأ القرآن؟! كان خلقه القرآن" (5).

ولا شك أن هذا الملمح من ملامح سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام هو سبيلنا إلى حل ما يشكل علينا من الأمور ما اختلفنا في حله وترحاله، وقربه من روح الإسلام وبعده، فالذي يحسم لنا الأمر هو سيرته وهديه.

2- صورة الإنسان المشرقة المتكاملة بكل أبعادها :

يظهر لنا من خلال سيرة المصطفى ﷺ الصورة المشرقة للإنسان الذي يمارس إنسانيته بكل أبعادها، ويتفاعل مع الواقع بكل معطياته، ويدرك أن مُحمّدا ﷺ بكل نوازعه البشرية، قد تربع على قمة التسامي الإنساني، وهو المثل الأعلى الحق للبشرية، وكيف في كل أحواله غير منسلخ غير بشريته، ولا متجرد منها، وبنفس الوقت لم يمجّر ولم يحف عليها، بل عاش مشاعرها كلها، خوفا ورجاء، فقرا وغنى، عزلة واختلاطا، عزوبة وزواجا، فردا ورب أسرة، قائدا حريبا، ومخططا سبا سبا، إماما حالما، وإنسانا يجلس مع الناس للحكم، آمنا مستقرا وهاربا خائفا، منصرفا مظفرا ومغلوبا أسبقا.

في كل هذه الأحوال كان ينهج على وتيرة واحدة من الاستقامة والعدل والرجولة والخلق الكريم، بما يشهد له به كل منصف مسلما كان أو



غير مسلم "إنه أعظم البشر على الإطلاق، وبهذه السيرة العطرة التي لا يستطيع أحد أن يחדش في طهارتها وسموها".

والحق أن سيرة محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة في التاريخ البشري التي يظهر فيها التلازم التام، والتطابق الكلي، بين القول والعمل، بين المبدأ والسلوك .

صورة الشخصية الإنسانية المتكاملة :

إن دراسة السيرة النبوية بموضوعية وتعمق، تقدم نموذجاً للشخصية الإنسانية، المتكاملة والرفيعة؛ التي يمكن أن تكون نموذجاً يحتذى به، لكل من يبحث عن المقال الأعلى والنموذج الكامل للإنسان، لأن: "شخصية محمد يمكن أن تقدم كقمة رفيعة من الإنسانية عندما تقدم للإنسان على اختلاف زمانه ومكانه ودينه ولغته وتقديماً صحيحاً غير مشوبة بأساطير وخرافات المحبين والمعجبين الجاهلين، وغير مشبوهة بتحليلات الجاحدين والمنكرين"⁽⁶⁾.

وإن السيرة النبوية كما يرى الدكتور حمادة: حين تقدم حية نابضة يراها القارئ وكأنه يعيش أحداثها دون حجب التعصب، أو غشاوة العاطفة، الجاهلة، لا شك أنها تستهوي القلوب ويرى أي شخص فيها إنسانيته التي يحث إليها، لأن النفوس السليمة جُلبت على التسامي والتعلق بالمثل الأعلى"⁽⁷⁾.

وقد اعترف كثير من الغربيين (عقلاء الغرب) بهذه الميزة لسيرة محمد وشخصيته، وعبروا عن ذلك كتابة وتأليفاً، فهذا توماس كارليل فيلسوف الغرب الكبير (1795-1871) يكتب عن سيرة محمد كتاب سماه محمد المثل الأعلى: رسول الإسلام . وهذا تولستوى الكاتب الروسي المشهور يكتب



عن حياة النبي وحكمه وحكمته، وبرز ذلك في كتاب أسماه : حكم النبي
مُحَمَّد .

وأما الشاعر الفرنسي "لامارتين في كتابه السفر إلى الشرق، يعترف
بحقيقة شخصية مُحَمَّد وبعظمة سيرته فيقول: "إن مُحَمَّدًا فوق البشر ودون الآلهة،
فهو رسول يحترم العقل... وإن اللغز الذي حله مُحَمَّد في دعوته، فكشف فيها
عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمتها دينا سماويا، سرعان ما اعتنقه، وهو أعلى
ما يسمه الخالق لبني البشر، وفي موضوع آخر يقول: "أترون أن مُحَمَّدًا، كان
صاحب خداع وتدليس، وصاحب ظل وكذاب؟ كلا بعدما وعينا تاريخه
ودرسنا حياته" (8) .

ونختتم هذا المبحث بما ورد من كتاب كارين أرمسترواع "سيرة النبي
مُحَمَّد، وقد قامت الكاتبة بتتبع سيرة مُحَمَّد في تفاصيلها، لتبين أن الإله الذي
دعا إلى عبادة مُحَمَّد هو الإله الذي عبده إبراهيم ودعا إليه موسى وعيسى،
والله ليس اسما لكيان اخترعه مُحَمَّد لكن معنى اللفظ هو الإله الواحد .

وتتبع كتب السيرة لتقف عن صفات مُحَمَّد وأخلاقه قبل البعثة
وبعدها، لتكشف ما كان عليه من صدق وأمانة وخلق، وتعاطف مع
المهمشين من اليتامى والفقراء والعبيد والنساء، وأيضا ما كان عيه من روحانية
وورع... الخ" (9) .

والذي يريد أن يتعرف على ملامح الشخصية الإنسانية المتكاملة
الأوصاف الكاملة، فعليه أن يبحث عنها في سيرة النبي، فبدارسة السيرة
النبوية نتعرف على تلك الجوانب التي كانت ملازمة الشخصية مُحَمَّد في كل



أحواله، والذي يريد أن يتلمس طريق الرقي في معارج الكمال الإنساني والسمو الأخلاقي، فعليه بالسيرة النبوية، فهي الطريق الذي يرضي الله تعالى.

استعمال كل حواس الإنسان في مواضعها:

ومن مظاهر الكمال في سيرة محمد ﷺ "أنها لم تعطل في الإنسان حاسة أو غريزة، بل استعملت كل واحدة في أدق ما يكون، فلقد كان رسول الله حليماً سيد الحلماء، أحلم في النفار من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم وقد مني بجفوة الأعراب فلم يوجد منه نادرة، ولم يحضر عليه بادرة. لا حليم غيره إلا ذو عثرة ولا وقور سواه إلا ذو هفوة .

لقد تناولته قریش بكل كبيرة وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم ومعرضاً عنهم⁽¹⁰⁾.

وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم بل تماهلاً عليه السادة الحلة والدون الذلة، فكلما كانوا عليه من الأمر كان عن من أعرض وأسمح حتى قهرهم فعفاً، وقدر فغفر، وقال لهم حين ظفر عام الفتح، وقد اجتمعوا إليه "ما ظنكم بي" ؟

قالوا: ابن عم كريم، فإن تعف فذاك الظن بك، وإن تستقم فقد أسأنا، فقال: بل أقول كما قال يوسف لإخوته، "قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

وقال : اللهم أذقت أول قریش نكالا فأذق آخرهم نوالاً" .

الفوائد العلمية لدراسة السيرة :



ولا شك أن دراسة السيرة لا تقتصر فائدتها على الجانب السلوكي والتربوي، بل تتعداه إلى الجوانب الأخرى، ومنها العلمية فمن الناحية العملية الشرعية يستفيد المسلم والدارس للعلوم الإسلامية الكثير من الفوائد منها :

- 1- من خلال دراسة السيرة نتعرف على تطور الدعوة الإسلامية ونتائجها
- 2- نتعرف من خلا السيرة على مواقف الرسول ﷺ من الأحداث وكيفية معالجته للقضايا وسياسته في قيادة الأمة .
- 3- نتعرف على الإطار العام لآيات القرآنية والقضايا الفقهية والتشريعية⁽¹²⁾.
- 4- تحديد الآيات الناسخة والمنسوخة.
- 5- تحديد أقوال النبي ودلالاتها.

بالنسبة لغير المسلمين :

هناك جانب مهم من سيرة محمد ﷺ لم يلتفت إليه الدارسون بالقدر الكافي، ويحتاج إلى مزيد من الاهتمام والعناية، هو جانب الحجة في سيرته وتوظيف ذلك كحجة قوية ودليل قوي على نبوته وصدق دعواه للرسالة، والنصوص والوقائع التاريخية في ذلك كثيرة .

ولا شك أن غير المسلمين قد اهتموا بسيرة محمد ﷺ، فمنهم من اهتم بها بدافع الفضول وحب الإطلاع ومعرفة حقيقة النبي محمد ﷺ الذي يتبع دينه ما يزيد على المليار من المسلمين .

ومنهم من يهتم بالسيرة، بدافع الدراسة العلمية الموضوعية لمحمد كغيره من الشخصيات العظيمة في التاريخ .



ومنهم من اهتم بسيرته بدافع ديني أو إيديولوجي الغاية منه التشويه والطعن حقدا أو انتصارا للعقيدة أو الدين أو معاداة للعرب والمسلمين، وانتقاما منهم ومن أمجاد الإسلام، ومحاولة تشويه السيرة النبوية لضرب الإسلام .

ولكن الذين يعيننا في كل هذه الاتجاهات هو ذلك الاتجاه الذي اقبل على دراسة سيرة محمد ﷺ دراسة موضوعية هدفها كشف الحقيقة ومعرفة تاريخ محمد ﷺ من مصادرة الموثوقة . وهؤلاء هم الذين اكتشفوا حقيقة محمد ﷺ وتبين لهم أن محمد ﷺ بشخصيته وسيرته العطرة النفسية المفصلة من الميلاد إلى الممات، هي أحد أكثر أدلة صدق الرسالة الإسلامية .

وهذه الحقيقة تبدو ناصعة واضحة في أذهان الكثير من المهتمين بالسيرة قديما من قبل، ودالة لكل من له عقل واعى وبصيرة نقية .

يقول ابن حزم في بيان حقيقة سيرة محمد ﷺ : "إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة وتشهد له بأنه رسول الله حقا، فلو لم يكن له معجزة غير سيرته تكفي" (13) .

"وقد اهتمى بهذه السيرة الكريمة العطرة عدد غير قليل من حياته وبعد وفاته ﷺ من العظماء والكبراء وأحاد الناس وعامتهم، ومنهم في القديم ابن الجلندي ملك عمان، فقد قال لعمر بن العاص رضي الله عنهما: رسول الله: ردوا الله لقد دلي على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخبر الأركان أول آخذ به، ولا ينهي عن شر إلا كان أول قائل له، وأنه يغلب فلا، ويغلب فلا يضجر، وفي بالعهد، وينجز الموعود، أشهد أنه نبي" (14) .



السيرة النبوية بين القدوة والحجة

وأما من المعاصرين فقد دخل في الإسلام عدد غير قليل من العلماء والعظماء لما أطلعوا على سيرة محمد وعملوا من أخبار شخصيته ما جعلهم يتيقنون أنه نبي مرسل وليس من البشر العادين .

ومثال هذا التأثير ما كتبه توماس كارليل في كتابه: "البطولة وعبادة الأبطال"، ففي المحاضرة الثانية من محاضرات الكتاب تحدث كارليل عن :
البطل في صورة رسول محمد ولا سلام .

وبعد أن حدد صفات الرجل العظيم وهي :

- 1- إخلاص الرجل الكبير، رجل صادق النية، جاد مخلص، إن الإخلاص لإخلاص الحر العميق هو أول خواص الرجل العظيم.
- 2- الصدق وحب الخير إنه من المجال أن يكون كاذبا، فإني أرى الصدق أساسه، وأساس كل ما به من فضل ومحمد .
- 3- إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه أبدا، ولا يتحدث مطلقا .
- 4- أصالة الرجل العظيم وصفا جوهره وكريم عنصره، يوجب الإصفاء إليه .
- 5- يدرك حقيقة الوجود، وتظل هذه الحقيقة حاضرة دائما بين جبينه ونصيب أعينه.
- 6- لا تحب الحقيقة عنده بفعل العوامل الوراثية ولا فيما عنه⁽¹⁵⁾ .

بين كيف أنبهر بشخصية محمد ﷺ لأنه جمع كل تلك الخصال والصفات، حيث يقول: "الحقيقة الكبيرة، وهي أنه رجل صادق، ونبي مرسل" ويقول أيضا: "كلاما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وإنما هو قطعة



من الحياة، وقد تفتطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم⁽¹⁶⁾.

وقال في الرد على نبي قومه الذين اتهموا مُحمّداً وكذبوا عليه رموه بالكذب : "وإني لأحب مُحمّداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقلاً للرأي، لا يقول إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه"⁽¹⁷⁾.

وأما أسباب عجب كارليل شخصية رسول الله فهي :

1- أمية مُحمّد وأن لم يعلمه بشر، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، فلم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه، في ظلمات ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره لنفسه أو يصل إلى سمعه، في ظلمات الصحراء العرب... الخ وعدم تأثره بعوامل خارجية عن الوحي .

2- صدق مُحمّد وأمانته التي اتصف بها منذ حدثته ووفاءؤه النادر، وإخلاصه لعشرائه، وإنصافه بالمرءة والشرف .

3- إشارته للصمت وبعده عن التكلف، فإذا نطق بالحكمة، البالغة وفصل الخطاب، بعيداً عن التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق .

4- كان رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهم، كريماً برأ، رؤوفاً تقياً، فاضلاً حراً، رجلاً شديداً الجِدِّ مخلصاً، عظم النفس، وما كان يعايب قط ولا شاب من قوله شائبة لعب وهو.



5- كان سهل الجانب، لين الجانب، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس، بل ربما ما زع أصحابه، وداعب أزواجه .

6- كان ذكي اللب، شهم الفؤاد، ممتلئاً نارا ونورا، رجلا عظيما لفطرته، لم تتقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، ولغو غني عن ذلك .

7- كان مُجَدَّ جميل الوجه، وضيء الطليعة، حسن القامة، زاهي اللون، له عينان سوداوان تتلأأ، تضيء وجهه ابتسامة مشرقة، من فؤاد صادق .

8- كان متواضعا، فلم يكن متكبرا، ولم يكن ذليلا ضارعا، بل هو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد، يخاطب بقوله الحر المبين الروم كاسرة الفرس، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة.

9- كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله...⁽¹⁾.

هذه هي الخصال التي تأثر بها كارليل ووقف في وجه قومه ورد عليهم فيما قالوه في حق مُجَدَّ ﷺ .

- توظيف مضمون السيرة في الدفاع عن الوحي والعقيدة :

حين أراد الطاعنون في الإسلام من الكتاب الغربيين وغيرهم النيل من مصادرة وتشويه صورته استعملوا كل الوسائل واتبعوا كل الطرق



لتحقيق مآربهم ومن ذلك محاولة النيل من شخصية مُحمَّد وسيرته ومن تم
توظيفها في الاستدلال على مزاعمهم، فكان ذلك محفزا لعلماء للعلماء
للبحث في سبل الرد على تلك المزاعم، فدرسوا السيرة النبوية وشخصية
مُحمَّد واتخذوها دليلا على صدق الوحي ورسالة الإسلام .

ومن النماذج التي سلكت هذا المسلك في العصر الحديث
الدكتور عبد الله دراز في كتابه مدخل إلى القرآن، ومالك بن نبي في
كتابه الظاهرة القرآنية .

فقد عمد كل منهما إلى البحث في السيرة وفي شخصية مُحمَّد ﷺ
وعلاقتها بالوحي (القرآن) وفي الوقائع التاريخية ومدى تطابقها مع
دعاوى المبطلين والمفرضين الذين اتخذوا بعض الأحداث كذريعة
للتشكيك في الوحي .

فبعد الله دراز في كتابه مدخل إلى القرآن تحدث عن أسلوب
جدي في الدفاع عن القرآن الكريم بالنظر إلى مضامينه بعيدا عن
الأسلوب الذي نتبعه حين نخاطب أهل العربية .

وعرض بعد ذلك ثلاثة عناصر أساسية جعلها مقدمة أو مدخلا
تاريخيا تميدا للاستدلال على قيمة الوحي ووثاقة النص القرآني، سماه
حقائق تاريخية أولية وفي مقدمتها حياة الرسول قبل البعثة، وذلك إلى
غاية التقائه بالوحي وبروح القدس جبريل وبداية تنزل القرآن عليه .



وفي كتابه النبأ العظيم حين يتكلم الشيخ دراز عن مصدر القرآن يذكر لنا أن القرآن يقر أنه نزل على مُجَّد وأنه منزل عليه ولا شأن له فيه، وسيرة مُجَّد تدل دلالة واضحة وصريحة على هذه الحقيقة في سيرته وحياته لم يدع أنه هو الذي أنشأ القرآن وكتبه وألفه، وفيه من العقاب واللوم والتصويب ما كان ينبغي لو كان مُجَّد ليس رسول أن يتركه في نص القرن وبدونه .

يقول دراز: "والقرآن صريح في أنه لا صنعه فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه .

والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند مُجَّد .

ويبين الدكتور دراز أن من علامة صدق مُجَّد أنه يتصف بهذه الصفة وهي أنه ينفي عن ذاته، أي صلة لها بالقرآن الكريم على خلاف ما هو معهود ومألوف عند سائر الناس، فيقول: "وإن أي مصلحة للعامل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة.

ثم يضيف دراز قائلا: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخا، على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها، فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه" (18) .



ولا شك أن هذه الصفة لم تتوفر لغير محمد ﷺ، فقد صار بها متفردا عن غيره من الأدباء والكتاب والشعراء وأصحاب السير يقول دراز شارحا هذه الفريدة: "فيعد بهذا الصنيع العجيب الذي اتصف به وظل متمسكا به طوال فترة بعثته، يكون قد خالق "الكثير من الأدباء الذين يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته حتى إن منهم من ينس قبور الموتى ويلبس أكفانهم ويخرج على قوته في زينة من تلك الأثواب المستعارة" (19).

ولو حدث أن وجد في الدهر من خالف هذه القاعدة ونسب أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلبده الدهر إلا مرة واحدة، في شخص محمد .

وبعد أن يسرد بعض ما يدل على انفصال الذات الحمديّة عن الوحي القرآني انفصالا تاما ينتهي إلى القول استخلاصا من سيرته.

"هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن الكريم، وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفيض عن قلبه بل أفيض عليه" (20).

وفي الختام يقدم لنا دراز خلاصة لما انتهى إليه من عرض بعض صورة السيرة ونماذج من سلوك الرسول ومواقفه فيقول: "والآن، وقد وفينا لك الوعد بعض هذه النماذج من السيرة النبوية، نعود إلى تقرير ما قصدناه من هذا العرض فنقول: إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في



صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر على صراحته، وتواضعه⁽²¹⁾.

هذه إذن نتيجة توصل إليها الشيخ دراز حني كان يناقش ما كان يطرحه المستشرقون ومن تأثر بهم حول مسألة الوحي وعلاقة الرسول ﷺ وقد اتخذ منهجاً جديداً في الرد على الشبهات والدفاع عن قضايا الوحي والعقيدة الإسلامية.

مالك بن نبي وتفسير الظاهرة الدينية وإثبات حقيقة النبوة :

لقد انطلق مالك بن نبي في الحديث عن ظاهرة الوحي والنبوة من منطلق جديد، يعتمد في الأساس على النظر إلى حياة الأنبياء وتاريخهم وصفاتهم، وبالأخص حياة محمد ﷺ، كمبدأ لبحث إمكانية وقوع الوحي وصدقه، وكدليل على وجوده الحقيقي أولاً وصدق مصدره الإلهية ثانياً.

يقول موضحاً ذلك: "إن حياة الأنبياء وتاريخهم يمنعاننا من أن نعدّهم مؤمنين مندفعين دون تعقل، وبكل بساطة، إلى الخوارق والمعجزات، وأن نحكم بأنهم معتوهون بأصل خلقتهم، اختلت عقولهم وبصائرهم بنقائص مزمنة، فهم يمثلون - على العكس - الإنسان في أسمى حالات كماله البدني والخلقي والعقلي، وشهاداتهم الاجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها".



وهذا الوصف الذي يتحقق في سيرة الأنبياء وأشخاصهم يوجب كما يرى بن نبي أن نلجأ إلى هذه الشهادات - شهادة الأنبياء - لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربة الشك المطلق الذي لا هدف⁽²²⁾.

وفي الحديث عن النبي والنبوة عموماً وعلاقة الأنبياء بالنبوة ومن حاولتهم في بدايتها التملص منها ودفعها عن ذواتهم؛ كما تؤكد سيرهم، يرى مالك ابن نبي أن هذا الأمر يدعونا إلى النظر الموضوعي إلى الحركة النبوية ودراستها دراسة عملية فيقول: "فإذا حدث أن جاءت نبوة فيجب أولاً أن تُعتبر كسبب يثير الاضطراب في ذات إنسانية ويدفعها دفعا لا سبيل إلى مقاومته نحو رسالة ما، لا تتضح دوافعها وأهدافها كحقائق محددة بهذه الذات، ولهذا فإن معرفة النبي لهذه الظاهرة أساس لأية دراسة نقدية للموضوع، فيونس وأرميا ومُحَمَّد ﷺ، أفراد أرادوا أولاً أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة، فقاوموا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيراً، فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم، وتتسلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية"⁽²³⁾.

ثم بعد هذا ينتقل مالك بن نبي إلى بحث الوحي الإلهي في رسالة الإسلام ويمهد لذلك بالحديث من شخصية مُحَمَّد ﷺ وتفاصيل حياته والعلاقة التي تربط بين الذات المحمدية والوحي، ولا شك أن هذه القضية تحتاج



الجمعية العربية
Association of Arab Universities



السيرة النبوية بين القدوة والحجة

إلى مزيد من العناية والبحث من خلال دراسة كتب الظاهرة القرآنية،
ومقارنة أفكار مالك بن نبي بغيره .

هذه بعض النماذج التي تم الاعتماد فيها على جوانب من سيرة
المصطفى عليه السلام للاستدلال على صدق النبوة والوحي، وهي
غرض من غرض .

خاتمة :



نستطيع القول في نهاية البحث أن السيرة النبوية كانت ولا تزال محل القدوة، بالنسبة لكل مسلم ولكل قارئ منصف يبغي الوصول إلى الحق .

ومحل الحجة لكل من قرأها بعقل مفتوح وقلب سليم، من المسلمين وغير المسلمين، فالمسلم يحتاج إليها ليطمئن قلبه ويزداد يقينه، وبالنسبة لغير المسلم يجد فيها القارئ المنصف الباحث عن الحق المتجرد عن نوازع الهوى ما يدلله على صدق نبوة محمد ﷺ ويزيل عن عقله شبهات التشكيك .



الحواشي والهوامش

- (¹) دراسات في السيرة، ص 6.
- (*) بالنسبة للمسلم يعيش أسوأ أيامه وأتعبس أحواله (عنف وقتل، تنافر وخراب تخلف)، بالنسبة لغيره: حالات من الفوضى الأخلاقية والقمعية لا مثيل لها، تحطم قيم الأسرة والعلاقات الإنسانية والأسرية .
- (²) انظر: فاروق حمادة، نفسه، ص 33.
- (³) عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، ط 15، 17/1.
- (⁴) فاروق حمادة: نفسه، ص 35.
- (⁵) انظر: فاروق حمادة، نفسه، ص 36 .
- (⁶) انظر: كتاب مُجد المثل الأعلى لتوماس كارليل، تعريب: مُجد السباعي، ص 6-9.
- (*) كاتبة بريطانية ألفت الكتاب للقراء الغربيين، وهي كاتبة مسيحية سعت بكتابها عن مُجد إلى الإنصاف والموضوعية .
- (⁷) كارين ارمسترونغ: سيرة النبي مُجد، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. مُجد عنابي، ص 7، 8.
- (⁸) انظر: فاروق حمادة، نفسه، ص 33.
- (⁹) المصدر نفسه، ص 37.
- (¹⁰) انظر في ذلك أبو زهرة، خاتم النبيين .
- (¹¹) ابن حزم: المهمل والنحل، 92/2.
- (¹²) الشقاء، عياض، 239/1، ابن حجر الإصابة، 262/1.
- (¹³) توماس كارليل، مُجد المثل الأعلى، تعريف مُجد السباعي، ص 5.
- (¹⁴) توماس كارليل: نفسه، ص 6.
- (¹⁵) نفسه، ص 7.



- ⁽¹⁶⁾ كارليل، نفسه، ص 7.
- ⁽¹⁷⁾ دراز: النبأ العظيم، ص 21-21.
- ⁽¹⁸⁾ دراز، نفسه، ص 32.
- ⁽¹⁹⁾ دراز: النبأ العظيم، ص 26.
- ⁽²⁰⁾ انظر: فاروق حمادة، نفسه، ص 33.
- ⁽²¹⁾ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 87.
- ⁽²²⁾ المصدر نفسه، ص 40 .